مقدمة

إن الدور الذى يؤديه سان سيمون بالنسبة لعلم الاجتماع ، يذكرنا بدور يوحنا المعمدان بالنسبة للمسيحية ، وهذا الدور يمكننا أن نتبينه بدقة لو أمعنا النظر فى كتاباته ومؤلفاته العديدة ، وإن كان — فى الواقع — يتعذر على من لا يتابع أفكاره متابعة عميقة أن يدرك هذه الحقيقة .

ولهذا لم يكن مستغربا أن يختلف المفكرون والنقاد فى تقدير أهمية سان سيمون كأول داعية لإنشاء علم الاجتماع La Sociologie فقد نسبه كثيرون إلى سكرتيره أوجست كونت .

ومن بين الفلاسفة المعاصرين الذين يستبعدون كل تأثير فكرى لسان سيمون على أوجست كونت ، هنرى جوهييه Henri Gouhier الأستاذ بجامعة السربون ، الذى يؤكد فى مؤلفه عن « شباب أوجست كونت ونشأة الفلسفة الوضعية »[1] أن سان سيمون قد كون منهجه العلمى فى البحث بفضل سكرتيره أوجست كونت ، ومن قبله أوجستان تييرى Augustin Thierry وأن سان سيمون لم يكن ليصبح شيئا مذكورا فى التاريخ لولا مقدرته على امتصاص أفكار الآخرين ، وأن أهمية سان سيمون لم تظهر إلا بفضل أتباعه من بعده .

والبروفسور هنرى جوهييه لا يعتبر سان سيمون عالما يسعى وراء الحقيقة ، وإنما يعده فنانا يتلمس الجمال ، وسيدا تجتذبه المظاهر الخلابة ، يقرأ كثيراً

---

(١) HENRI GOUHIER : La Jeunesse d'Auguste Comte et la formation du positivisme.

راجع الجزئين الثانى والثالث من المؤلف المذكور :

T. II "Saint-Simon jusqu'à la Restauration."
T. III "Auguste Comte et Saint-Simon".
Paris, Vrin, T. II (1936), T. III (1941).

ولكنه لا يستوعب شيئا ، فالشهرة تستميله أكثر مما يسترعيه جوهر الأشياء .

ويؤيد جوهييه فى اتجاهه فيلسوف معاصر آخر هو ليون برنشفيج Léon Brunschvicg إذ يقول فى كتابه « تقدم الوعى فى الفلسفة الغربية » إن سان سيمون رجل عبقرى ليس إلا ، وقد أراد أن يساهم فى تنظيم المجتمع الإنسانى دون أن يتمكن — هو نفسه — من تنظيم حياته الخاصة وأفكاره الشخصية[١] .

* * *

ثم يسترعى انتباهنا فريق آخر يؤكد زعامة سان سيمون ، وأهليته لأن يعد منشئ علم الاجتماع وينكر على أوجست كونت أبوته لهذا العلم ، ويذهب إلى حد مهاجمته واعتباره مقلدا لأفكار سان سيمون .

من بين هؤلاء نجد برودون Proudhon وكارل ماركس Karl Marx وإميل دوركيم Emile Durkheim وماكسيم لروا Maxime Leroy وغيرهم .

أما برودون فإنه لا يخفى احتقاره لكتابات أوجست كونت وفلسفته[٢] ، بل إنه يصل فى مهاجمته لكونت إلى حد تأكيد أن نظريات كونت الاجتماعية ليست إلا تكرارا لنظريات سان سيمون التى شوهها معاونوه[٣] .

وفى الوقت الذى يقلل فيه كارل ماركس من أهمية أوجست كونت كرجل من رجال العلم[٤] ، فإنه ينسب إلى سان سيمون فضل إقامة دعائم علم الاجتماع الحديث . ويواصل ماركس دفاعه عن سان سيمون فى كتاباته المتتابعة ، لدرجة

---

(١) Léon Brunschvicg : Le Progrès de la Conscience dans la philosophie occidentale. p. 65.
Paris, Presses Universitaires de France, 1942.

(٢) راجع رسائل برودون الجزء الخامس صفحة ٧

(٣) راجع على الأخص من بين مؤلفات برودون كتابيه : فلسفة التقدم La Philosophie du Progrès ، والفكرة العامة عن الثورة فى القرن التاسع عشر L'idée générale de la Révolution au XIXe Siècle.

(٤) راجع فى المجموعة الكاملة لمؤلفات كارل ماركس : رسالته إلى شارل بيليه فى ١٢ يونية سنة ١٨٧١ . (Correspondance : Lettre à CHARLES BESLAY, le 12 juin 1871

أنه يتصدى للكاتب الألمانى كارل جرون Karl Grun بالنقد لتشويهه أفكار سان سيمون . ويبين بدقة أنه لا يوجد أدنى تعارض بين أفكار سان سيمون فى مؤلفاته العديدة ، وإنه يجب على من يريد أن يفهم سان سيمون أن يقرأ مؤلفاته جميعا[١] .

ويمكن لمن يقرأ كتاب كارل ماركس عن «الاقتصاد السياسى والفلسفة» أن يجد فيه عبارات بأكملها مستمدة من سان سيمون ، وعلى الأخص فكرة علم الإنسان La Science de l'homme وعلم الفزيولوجيا الاجتماعية La Physiologie Sociale .

أما دوركيم فإنه يؤكد فى كتابه عن الاشتراكية ، أنه يجب أن ننسب إلى سان سيمون وحده الشرف الذى ننسبه إلى أوجست كونت بأنه أنشأ علما جديدا هو علم الاجتماع . ويضيف إلى ذلك أن سان سيمون لم يرسم فقط خطة هذا العلم الجديد ، وإنما حاول أيضا أن ينفذها ، وأن جميع الأفكار التى تسود مجتمعنا الحالى نجد جذورها لدى سان سيمون[٢] .

ويدافع ماكسيم لروا Maxime Leroy فى كتابيه : اشتراكية المنتجين : هنرى دى سان سيمون Le Socialisme des Producteurs : Henri de Saint-Simon والحياة الحقيقية للكونت دى سان سيمون La vie véritable du Comte de Saint-Simon ، مؤكدا أنه ليس أوجست كونت هو الذى أنشأ علم الاجتماع ، وإنما الفضل فى إنشائه يرجع إلى سان سيمون وحده . وأن هذا الأخير هو الذى وجه العلوم الاجتماعية وجهة علمية ، مكملا فى ذلك رسالة ديكارت Descartes من قبل .

ويريد ماكسيم لروا أن نعدّ سان سيمون أكثر قدرة من ماركس وبرودون ،

---

(١) راجع الجزء التاسع من مؤلفات ماركس الفلسفية (ترجمة مولوتور) صفحات ١٨٩–٢١٨ .

(٢) DURKHEIM : Le Socialism : Sa définition, ses détails, la doctrine Saint-Simonienne. Paris, F. Alcan, 1928.

ما دام أنه قد تناول كل ما وصل إليه هذان الفيلسوفان بل أكثر مما وصلا إلى تحقيقه.

وفى كتابه « تاريخ الأفكار الاجتماعية فى فرنسا » Histoire des Idées Sociales en France يقول إن سان سيمون هو ديكارت علم الاجتماع ، وإن مكانة أفكار سان سيمون فى ميدان السياسة والاجتماع تماثل مكانة أفكار ديكارت فى ميدان الفلسفة . بل إن ماكسيم لروا يعدّ سان سيمون الأستاذ المشترك لكل من ماركس وبرودون ودوركيم ، وأنه هو الذى مهد الطريق إلى الاشتراكية[1] .

* * *

ويجدر بنا أن نتوقف قليلا عند هذا الحد من عرض آراء المعارضين والمؤيدين لأهمية تفكير سان سيمون الاجتماعى ، لنتبين ملاحظة هامة هى أن كلا من الفريقين قد اتجه فى تأييده أو معارضته على أساس أن سان سيمون أوحى إلى كونت بمذهبه فى الفلسفة الوضعية .

والحقيقة أن محاولة تقدير أهمية سان سيمون على هذا الأساس تضلل الباحث كثيرا ، لأن لسان سيمون أفكاره المبتكرة والمتعارضة تماما مع الأفكار التى نادى بها أوجست كونت فيما بعد .

فمن المهم أن لا يفوتنا أن أوجست كونت يستمد الأساس العلمى لفلسفته بشكل مباشر من دى بونالد De Bonald وجوزيف دى مستر Joseph de Maistre ، وأنه حاول منذ البداية أن يوفق بين فلسفته وبين فلسفة كندرسيه Condorcet فأظهر بذلك أهمية الفلسفة التقليدية .

فى أوائل كتاباته (ما بين عام ١٨١٩ ، ١٨٢٢) ، يلاحظ أن أوجست كونت يطالب بالوحدة المطلقة L'Unité absolue وبضرورة وجود تصاعدية مغلقة مستقرة Hiérarchie Stabilisée وبأن تسود فى المجتمع عبادة الدولة Le culte de l'Etat .

---

(١) MAXIME LEROY: Histoire des Idées Sociales en France Vol. II, Paris, Vrin, 1950, p. 48.

ومن جانب آخر فإن قانون الحالات الثلاث ــ لدى أوجست كونت ــ الذى يفرق بين الحالة الدينية والحالة الميتافيزيقية والحالة الوضعية ، كانت فكرته موجودة فعلا لدى سان سيمون قبل أن يلتقى هذا الأخير بأوجست كونت ، وأن مجرد توارد هذه الفكرة عندهما ليس إلاصدى للافكار التى كانت سائدة فى ذلك الوقت .

فقد وردت هذه الفكرة ــ على سبيل المثال لاالحصر ــ فى كتابات بوردن Docteur Burdin وبنجمان كونستان Benjamin Constant وتورجو Turgot .

ويعتقد الأستاذ جوهييه أن تورجو هو أول من تناول هذه الحالات الثلاث بالتفرقة فى كتابه عن التاريخ العالمى[١] :

"Plan de Deux Discours sur l'Histoire Universelle".

ومن المهم أن لا يفوتنا أن مدلول كل من عبارة وضعى Positif وميتافيزيقى Métaphysique يتفاوت من فيلسوف لآخر ، وعلى الأخص عند كل من سان سيمون وأوجست كونت .

ولهذا فإن أسبقية التفكير فى ذلك لا معنى لها ، لأن فكرة سان سيمون لا علاقة لها البتة بالفلسفة الوضعية ، وجميع الأخطاء منشؤها اختيار الفلسفة الوضعية كأساس للحكم على أفكار سان سيمون ، بينما أن هذا الفيلسوف يعد المنشىء لحركة جديدة ومبتكرة تماما .

وككل فكرة جديدة لا يمكن أن ننسبها كلية إلى شخص واحد ، فإنه بدأ مع سان سيمون اتجاه عقلى جديد ، وهذا الاتجاه الجديد هو الشىء الذى لم يتبينه معاصروه . ولم تظهر أهمية أفكار سان سيمون إلا فى اليوم الذى أسلم فيه الفيلسوف روحه إلى بارئه . فقد ظل طوال حياته يعيش فى حالة من عدم الاستقرار ، وفى الوقت الذى بدأ يلتف حوله فريق من الأصدقاء والأتباع ، فى

---

(١) HENRI GOUHIER : op. cit. T. III. Auguste Comte et Saint-Simon. p. 213.

الوقت الذى بدأ فيه يفكر فى إنشاء مدرسة أو جمعية لنشر أفكاره وآرائه ، اختفى الزعيم ليسلم عبء هذه المهمة إلى أتباعه من بعده .

والحق أن ما تمتاز به أفكار سان سيمون من عمق وإصالة ، على الرغم مما قد يكتنفها من غموض مقصود ، بل من تناقض كانت تقتضيه الظروف السياسية فى عصره ، جعل منه مبدعا لا نظير له ، ورسولا للإنسانية يفتح الآفاق أمام مذهب جديد وفلسفة جديدة . وقد واجهتنا هذه الصعوبة عندما حاولنا أن ننقل إلى العربية مختارات من كتاباته ، فقد وجدنا أن سان سيمون كثيرا ما يستعمل عبارات واحدة للدلالة على معان متفاوتة ، وكثيرا ما يستخدم الأسلوب الساخر الذى ينطوى على معان عميقة وإن بدت فى مظهرها سهلة ميسورة المنال ، وإننى مدين بالفضل لأستاذنا الكبير الدكتور يوسف مراد الذى بذل معنا من الجهد فى مراجعة أصول هذا الكتاب ، فكان لتوجيهاته وملاحظاته السديدة وخاصة فى مراجعة النصوص المختارة ما أضفى على هذا الجزء من عمق تفكيره وسلامة عبارته ما أترك تقديره للقارئ الكريم .

ولا يمكننى — فى هذا المقام — أن أنسى فضل أستاذنا الكبير الدكتور عبد العزيز عزت ، الذى دفعنى إلى التعمق فى الدراسات السان سيمونية ، وأتاح لى أن أقدم للمكتبة العربية أول دراسة عن « أتباع سان سيمون : فلسفتهم الاجتماعية وتطبيقها فى مصر » التى قررت جامعة القاهرة طبعها على نفقتها وتبادلها مع الجامعات العالمية .

ويسرنى أن أسهم بهذا الكتاب — الذى يعد الأول من نوعه باللغة العربية — فى تزويد المكتبة العربية بصورة صادقة عن نابغة من نوابغ الفكر الغربى .

طلعت عيسى